

الأدنى الأمثل

محمد أحمد الراشد



إحياء فقه الدعوة

سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية

الرسالة العاشرة

الأدنى الأمثل

تذكير بالأهداف الاستعمارية القديمة والمعاصرة

ودين الظالمين في تبديد الأموال وحرف الإعلام والأدب عن سواء السبيل

ومعايب الأساليب التمييعية التي يتولع بها علماء السوء

مع بيان أفضلية المرابطة وخطأ هجرة المؤهل للإصلاح

وشرح حيثيات منهجية الاستعداد وتصاعد التوغل

وتمكين تشكيل الحد الأدنى من فتح آفاق بلا حدود



□□ حين اندلعت الحرب العالمية الأولى ، اقتضت المصالح الاستراتيجية البريطانية احتلال البصرة وجنوب العراق ، لتأمين النفط المتدفق يومئذ من (عبادان) ، ودارت معارك دافع فيها الجيش العثماني دفاعاً ضارياً ، وتراجع ، لكنه استطاع بعد حين رَدّ الكَرّة ، وحاصر البريطانيين ومن معهم من الهنود في (الكوت) على دجلة ، فاضطرت بريطانيا لإرسال حملة ثانية في محاولة لفك الحصار ، وسابقت الزمن ، ولكن الجيش العثماني استبسل واستطاع تأخيرها ، حتى استسلم البريطانيون ومن معهم من الهنود جميعاً ممن حوصر من جنود الحملة الأولى ، ومع ذلك كانت أوامر وزير المستعمرات آنذاك (جرجل) تلح على قائد الحملة أن يواصل معاركه والصعود شمالاً لفتح (بغداد) ، والقائد يستغرب هذا الإلحاح ، ويجادل ، ويرى أن غاية الحملة قد تحققت بتأمين نفط عبادان ، وأنه لا معنى لاحتلال بغداد التي لا نفط فيها ..!

● **وإزاء جدل القائد وضعف إحاطته بأخبار حركة الحياة : غضب جرجل غضباً شديداً ، وأرسل برقية جازمة صريحة هي اليوم وثيقة مهمة في علم استراتيجيات الحركة الحيوية ، يقول فيها ما خلاصته : سر نحو بغداد وافتحها مهما بذلت من خسائر ، لأني لا أنظر إلى أنها حقل نفط ، بل لأنها قلب العالم الإسلامي وعاصمته ، وأريد إحداث هزة معنوية نفسية تصيب جميع الأمة الإسلامية بالإحباط ، فيكون الاستيلاء على الأطراف أسهل !!**

● ونص البرقية ورقمها الأرشيفي تجده في كتاب (حرب العراق) تأليف اللواء الركن شكري محمود نديم ، وفيه محاضراته عن تلك المعارك على طلاب الكلية العسكرية العراقية.

□ وأرجا من زمن ... فنلوا بحرها ... وماث(١)

□ منطق هذه البرقية الاستعمارية هو الجذر الذي استمدت منه خطة العولمة الأميركية فلسفتها في احتلال العراق بعد ما يقرب من تسعين سنة ، فالعراق بلد محدود القدرات ، لكنه ثري في فكره وتراثه الحضاري ، والمعنويات عامرة في أفئدة أهله ، والإيمان من وراء ذلك يزيد المحاسن تأثيراً ، ومن الممكن أن يُتاح لفئة إبداعية من وعاة دعاته أداء عمل ضخم ضد الاستعمار وإيقاظ المشاعر الجهادية في الأمة والحفاظ على وتيرة المناوشة مع إسرائيل إلى حين قيام ظرف يساعد على استئصالها ، بالتعاون مع كل مجاهد فلسطيني وكل أحرار الأمة ، بل وكل أحرار العالم الذين بدأوا يفهمون خفايا السياسة وطبيعة اليهود .

● لذلك كانت الخطة الأميركية صريحة في أنها تبدأ بالعراق ، ولكنها تريد تغيير خوارط بلاد الأمة الإسلامية كلها بعد ذلك ، وأنها تحرص على عقد معاهدات السلم مع إسرائيل ، وعلى تقسيم العراق ، لتأمين تفكيك القوة ، وغرس سبب للنزاعات المحلية الملهية .

● وبهذا يمكن أن نفهم بوضوح تام الارتباط الحاصل بين الخطط اليهودية تجاه العراق ، وخطة العولمة الأميركية ، وأن ندرك أن قضية (وحدة العراق أو تقسيمه) هي (محرك حيوي استراتيجي في قيمته) ، وتنطلق خطة الدفاع الإسرائيلي الاستراتيجي من هذا المنطلق بشكل دائم ومركزي ، وقد مضى نصف قرن على ما نقله الصحفي الهندي العالمي الصيت (كارنجيا) في كتابه (خنجر إسرائيل) من أنه وجد قادة إسرائيل يعتمدون تفكيك البلاد العربية إلى دويلات طائفية أو قومية أسلوباً مثالياً لضمان أمن إسرائيل المستقبلي ، ولكن لهجة الفكر التخطيطي الإسرائيلي باقية على ما هي عليه ، كمثل التقرير الجديد الذي أوردته جريدة (البعث) ، وفيه بيان أن : (الدعوات التي أطلقها جنرالات وباحثون إسرائيليون ، طالبين فيها من الولايات المتحدة وحلفائها ، ولا سيما بريطانيا ، العمل على تكريس تقسيم العراق ، باعتباره الضمانة الأفضل لتحقيق

الأهداف الأمريكية والإسرائيلية في المنطقة ، هذه الدعوات تلقي المزيد من الأضواء على دوافع الحرب الأمريكية على العراق ، وتبين أن سبب مسارعة قوات الاحتلال لتدمير بنى الدولة في العراق وتحطيم مؤسساته ، إنما هو لإيجاد واقع جديد يقطع العراق عن جذوره ، ويمهد إلى تقطيع أوصاله .

وبالعودة إلى ما جاء على لسان الخبراء الإسرائيليين فقد قال جاي باخور الباحث في (مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات) وهو أشهر مراكز البحث الإسرائيلية : أنه في حال لم يسفر الاحتلال الأمريكي للعراق عن تقسيم هذا البلد ، فإنه يمكن اعتبار الحرب الأمريكية عليه فاشلة من أساسها ولم تحقق أهدافها .

واعتبر باخور في ندوة إذاعية بثتها الإذاعة الإسرائيلية أنه يتوجب القضاء على الوحدة الجغرافية للعراق وتسهيل إقامة كيانات طائفية في البلد ، مشدداً على ضرورة أن يتم أولاً إضعاف الوجود المقاوم في العراق وضرب حركات المقاومة هناك بكل قوة حتى لا تتحول المقاومة في العراق الجديد إلى نقطة انطلاق كبيرة لتهديد المصالح الأمريكية والإسرائيلية .

من ناحيته قال الرئيس الأسبق لشعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية عاموس مالكا : أن غياب العراق عن خارطة المنطقة بمساحته الحالية ، ووحدة أقاليمه سيكون أحد العوامل المهمة في تقليص المخاطر الإستراتيجية على إسرائيل ، منوهاً إلى حقيقة مشاركة العراق في الكثير من الحروب التي خاضتها الدول العربية ضد إسرائيل .

وأكد عاموس أن تقسيم العراق يقلص من إمكانية الاستفادة من الطاقات البشرية والمادية التي يتمتع بها هذا البلد ، مضيفاً أن العالم العربي دون العراق الموحد هو أفضل لإسرائيل من العالم العربي بوجود العراق الموحد .

وقال الجنرال داني روتشيلد الذي تولى في السابق منصب رئيس قسم الأبحاث في جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية : أنه يجب على إسرائيل أن تحاول تطوير علاقات مع الكانتونات التي تنشأ في العراق الجديد ، مشيراً إلى علاقات تاريخية جمعت بين إسرائيل وبعض قادة الأكراد في شمال العراق)[٢] .

● وهذا ما يفسر التصرفات الحاقدة ضد مدينة بابل ، لأنها بلد الملك نبوخذ نُصَّر الذي مَحَقَ إسرائيل الأولى ، وقد تساءل عبد الكريم العُبيدي عما (إذا كانت الآثار صغيرة الحجم صعبة الترميم ، وإعادتها إلى شكلها الأصلي يحتاج إلى سنوات ، فكيف سنستطيع ترميم آثار بابل المدينة الأشهر في تاريخ الإنسانية ، التي سحقت أرصفتها الملكية جنازير الدبابات الأمريكية وسوتها بالأرض ؟).

● ثم أعاد العبيدي التساؤل : (ماذا نفعل مع تخلخل أسس العديد من الأبنية الأثرية والمنائر السلجوقية المخروطة ؟) و(كيف سنعيد ترميم طارمة الحضرة الكيلانية التي سُويت بالأرض ؟) .

وواضح أن ذلك جرى **لأن العهد السلجوقي هو الذي تولى تصفية آثار البدعة التي حرص الحكم البُويهي على إظهارها طيلة قرن كامل وزيادة ، ولأن عبد القادر الكيلاني كان القائد الشعبي الذي نصَّر السلاجقة في سعيهم ذاك !!**

● ولم يقتلوا التاريخ فقط ، بل قتلوا (الحاضر) ، وما زالت الجهود التخريبية تتواصل لقتل (المستقبل) ، فقد ورد (في تحقيق أجرته الحركة الإيرلندية المناهضة للحرب عن ظاهرة قتل الأساتذة والأكاديميين والباحثين والعلماء من العراقيين واتساعها ، أكدت الحركة المذكورة **أن عناصر من الموساد الإسرائيلي بالاشتراك مع فرق أمريكية خاصة تعمل تحت امرة الاحتلال ، استطاعت قتل ٥٣٠ عالماً عراقياً و٢٠٠ من الأساتذة** والباحثين والأكاديميين ، وهو أمر لم يحصل قبل ٩ نيسان ٢٠٠٣.

ووفقاً لتقرير قدم للرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ، فقد عملت عناصر من الموساد الإسرائيلي على تصفية علماء الذرة والبيولوجيا من بين علماء وأكاديميين آخرين ، خاصة بعد أن أخفقت جهود أمريكا بإقناعهم للعمل معها أو لصالحها ، حيث ركز الجهاز الإسرائيلي على تنفيذ الحملة بواسطة مجموعة كوماندوس وأدوات محلية ، ومهدت الولايات المتحدة لأرضية معلوماتية دقيقة اشتملت على الاسم والتخصص ومكان الإقامة والعمل والإنجازات العلمية)[٣].

وأما معلوماتنا الخاصة : فتبدي أن الأرقام مضاعفة .

● وكان جرجل أكبر واضعي ومنفذي الفكر الاستعماري القديم ، وبوش هو أكبر مصدقي الفكر الاستعماري الديني الجديد وأبعدهم جرأة في تنفيذه ، والمقارنة تبدي صلة اللاحق بالسابق ، وانصياعهما معاً للمصالح اليهودية .

□ جاء بفضّة ... فذهب !!

□ إنما لكي تتم العملية ويتوفر لها عنصر الإتقان : يكون من الضروري اصطناع وكلاء محليين في بلادنا يرفعون الأعباء عن قيصر العولمة ، وتُصرف أموال الأمة التي استولى عليها المستعمر في تنصيبهم وشراء ولاء المغفلين لهم .

● وتبدأ قصة إرهاق الأمة .. وحديث الإرهاب .. وهجرة القلوب والعقول ، وإفراغ الساحة ..

وتروي قصة (في بلاد الرجال) لهشام مطر خبر (طفل تعرض باكراً جداً لوحشية السياسة) عبر هجرة أبيه من بلاده لأسباب أمنية ، وترك الطفل وأمه يراوغان جنود الوكيل .[٤]

فالأسواء ، والقيود .. تتجاوز جيل التكليف ، لتطال الأطفال والجيل الصاعد ، لإتلافه قبل تجريبه لفرصته ، بالتوتر ، والقلق ، وتهشيم النفس .

وبذلك يتتابع ورود (كابتات التحريك الحيوي) المعاكسة ، وعلى مدى استراتيجي يتعامل مع جيل كله ، وليس مع أفراد أو مجموعة أو حزب فقط .

● ومثل هذا البُعد في التخطيط يلزمه قبل كل شيء أن يودع أمر (الإعلام) إلى (رويبضات) يغسلون الأدمغة .

وذلك هو الحديث الصحيح الذي يجعل من علامات الساعة أن ينطق الرُويبضة في أمر العامة .

والرويبضة : (تصغير رابضة ، وهو الذي يرعى الغنم . وقيل : هو العاجز الذي رَبَضَ عن معالي الأمور وقعد عن طلبها ، وزيادة الهاء للمبالغة في وصفه) . (كما يقال داهية) (والغالب : إنه قيل للتافه من الناس رابضة ورويبضة : لربوضة في بيته وقلّة انبعاثه في الأمور الجسيمة .)[٥] .

فاصطلاح (النطق في أمر العامة) هو ما يسمى اليوم (المنظومات الإعلامية) . ولذلك لا ينبعث اليوم إعلام بلادنا في أمور جسيمة تبعث أشواق الجهاد ، وتوضح خبر الاقتصاد ، وقضايا التنمية ، وإنما يجنح نحو قصص الحُب ولوعات العاشقين ، والترويج للاستهلاك والتبذير .

● لكن الإعلام يحتاج إلى (أدب) يغذيه ، ويمده بمادة الكلام .

ولذلك يكون قرار (تلويث الأدب) وحَرْفه عن مقصده السامي ، وجعله أداة لتمجيد الوكيل ، وتصويب سياسته في سجن الأحرار ووضع القيود والأغلال ، وإغراء وتوريط من لا فقه له في بعض أعمال العنف ليبطش رداً عليه .

ويلاحظ الفيلسوف البلغاري المعاصر (تودوروف) سريان أدب (النهيلية) (التي تزعم أن العُنف هو الحقيقة الوحيدة للكائن البشري ، وتصرخ (عاش الموت) . وكذلك الشأن مع (الأنانة) : (والتي تجعل الكاتب يحكي همومه الصغيرة على امتداد الصفحات .)(٦) .

وأبشع ذلك : أن تكون همومه هي كبته الجنسي .

ومهمة خطة التحريك الإسلامي للحياة أن تقول : (لا) لهذا التوجّه الهدّام ، الذي ربما تديره في الخفاء جهود يهودية ، والذي يقرأ بروتوكولات حكماء صهيون لا يستبعد ذلك ، وواقع السينما والفنون يقوم شاهداً .

وواجب أدب الإيمان في تحريك الحياة أن يصرخ (تعيش الحياة) : ليكون نقض الهدم والرؤى السوداوية .

والأديب الثقة هو الذي يحكي هموم الأمة الكبيرة ، وهموم الدعوة الإصلاحية ، وليس هموم عابث استمرت مراهقته أو ركبه الحسد .

● ونمط الحياة المنحرف : فارغ المحتوى ، ولذلك يُراد له مَن يحرسه ، وتكون له بهرجة قِشرية فيها تمويه ، ومن هنا تنشأ ظاهرة (المظاهر) ، وقد وصف تاج الدين السُبكي خَطَلَ سلطانٍ : (فرّق الإقطاعات على مماليك اصطفاها ، وزيّنها بأنواع الملابس ، والزراكش المحرّمة ، وافتخر بركوبها بين يديه ، وتَرَك الذين ينفعون الإسلام جياعاً في بيوتهم .)(٧) . ووَصَفَه بأنه (أحمق) .

وظاهرة عزل (الذين ينفعون الإسلام) في هـذه الأيـام ، ومحاولـة تجـويعهم أو عدم تمكينهم من أداء الواجب الدعوي : قد بلغت مبلغاً أعتى مما كـان في زمـن ابن السُبكي ، لأن الأمن الاستراتيجي الإسرائيلي يقتضي ذلك .

● لذلك تتولى الأقدار الربانية عزله ..

فمـا تـولى حـاكمٌ بفضةٍ إلاّ ذهـب[٨]

فالذي يتوصل لسُلطة أو قضاء بصرف مال ويستعمل الرشـوة : يـذهب ، ولا يدوم ، ومن يجد نفسه على الكرسي ثم لا يجعـل العـدل وسـيلته لكـسب رضـا الناس ، بل المال ، يذهب كذلك .

وقول البيت أنـه يـصرف (الفـضة) : أبلـغ مـن صـرف الـذهب ، لأن الحيـاة السياسية لا تستدعي مزيد إغراء ، بل (معرض الولاء) مفتوح بـأبخس الأثمـان ، وإذا ضعف إيمان المرء : باع نفسه برخيص ، ولا يخلو مجتمع من تافهين ، وجهنم تحتاج حطباً ، وبئس التابع والمتبوع .

● لكنه عند النزع الأخير : يرغب أن يطيل أنفاسـه البطيئـة ، ليكـسب وقتـاً ، فيُلهي الناس بمؤتمرات .. وذلك هو الذي يهزّ أمثال د. عيسى درويش :

(إلى متى يُعلّق المصير في عقد مؤتمر ؟ ويهتفون لقيصر عظيم :
بأننا نكافح الإرهاب .. ونطلب السلام .. وندفع الخطر ؟) .

وهذا استغراب من صاحب حق ، إنما هو في دائرة السلب إذا لم ينتقل إلى حـلّ واقتراح مخرج يكون عنده الإيجاب .

وكان هذا الموفق مؤهلاً لذلك ، فراح يستنهض ....

(قوموا العنوا الشيطان .. فإنهم جاؤوا إلى بلادنا .. واستعمروا أوطاننا ..
وصادروا إيماننا .. بالله .. والكتاب .. والقَدَر ..
والناس في بلادنا .. تراقب السماء ..
تنتظر المطر .. وتطلب الحياة .. مطر .. مطر ... مطر ..!!)[٩] .

فالمطر علامة رحمة ربانية فيها نجدة للأمة ، وخير الأمر أن تواتي العزمةُ الرحمـةَ !!
ولكن شرط ذلك أن يكون وفق منهجية بناء ..

وتلك هي الإشارة إلى (طلب الحياة) وتحريكها وفقاً لموازين الإيمان .

وأخبار (العزمات العراقية) شاخصة .. لعلّ مزنة تواتيها ..

والرقم الثالث في المعادلة يمثله : رفد الأمة في موطنها العريض ..

ونبضات فلسطين عامل مساعد .. يتولى تفعيله إسناد .. أحرار العالم الواسع كله ...

□ صَنعةُ الدِّيصان ... تستحق الصَفعان ..!

□ أما هو كسلطان .. فتلك قضيته ومصالحه ...

ولكن نعجب لقوم من أهل العلم يذلون أنفسهم باختيار الأدنى .

وموازين القدماء تجعل الاستقلال عن الحكام : عنوان شرف وعز ، والتبعية لهم : قرينة مذلة ، ويسمون ذلك دَيصاناً ، وداص يديص : يفر عن الحرب ، وداص الرجُل : إذا خسّ بعد رفعة ، والداصة : السِفلة ، ويقال للذي يتّبع الولاة : دائص . معناه : الذي يدور حول الشيء ويتّبعُه .[١٠]

وفي الخبر : أن الحسن البصري مرّ على باب أمير العراق ابن هُبيرة وعليه القرّاء ، فسلّم ثم قال لهم :[١١]

(مالي أراكم جلوساً قد أحفيتم شواربكم وحلقتم رؤوسكم وقصّرتم أكمامكم وفلطحتم نِعالكم ؟

أما والله لو زهدتم فيما عند الملوك لرغبوا فيما عندكم ، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيما عندكم ! فضحتم القُرّاء ، فَضَحَكم الله .)!!

وهذه قسوة مسوغة ، وهو إمام عصره ، وما اعتدى عليهم ، وإنما هم عار على معشر أهل العلم الشرعي ، وكان من حقه التبكيت .

● وما كان الحسن البصري منفرداً بمثل هذا الفهم ، وهو سيد التابعين ، وإنما كان هذا الموقف ممن يُرخصون العلم طريقة جيل تلك الأيام ، ويشهد لهذا الظن قول عروة بن الزبير بن العوام :[١٢]

(عجبت لقوم طلبوا العلم ، حتى إذا نالوا منه : صاروا خُصّاناً لأبناء الملوك .)

أي مربين ومعلمين .

فوظيفة العالم عامة، وهو معلّم الناس وجمهور المسلمين ، فإذا احتكر ملك علمه لابنه ، فذاك سلب لحقوق الناس ، وينبغي أن يأبى العالم التقي ذلك ، والتأول باحتمال إصلاح الأمراء ليحكموا بالعدل : تأول صحيح وله وجاهة وشاهد ، ولكن : كم من هؤلاء العلماء يتعالى على المغريات فيظل وفياً للعامة ؟ والقياس يجعل لأسف ابن الزبير سعة ، فبَلِّية العلماء المناصب أيضاً ، ويسكت عن الحق لأنه يصير قاضياً ووزيراً وفي مكان يقتضي المداراة ، فيكون العلم هو الضحية .

● ولذلك ثبتت هذه الطريقة منهجاً تربوياً في تعليم العزّة ، ففي الجيل الذي استلم الراية من هؤلاء : اشتهر سفيان الثوري بالإنكار على المتاجرين بالعلم ، وأقواله في (المسار) ، ثم استمر المنهج حياً حتى وصل إلى الأجيال المتأخرة ، فكان تاج الدين السُبكي صريحاً في تقريره عن الدولة والمجتمع في عصره ، الذي سماه (معيد النِعَم) ، وراح يوصي بالحذر ...

(فمن هؤلاء من يطلب العلو في الدنيا ، والتردد إلى أبواب السلاطين والأمراء) (وحب المناصب والجاه ، فيؤدي ذلك إلى أن قلبه يُظلِم بهذه الأكدار ، ويزول صفاؤه بهذه الأمور التي تُظلم القلوب ، وتُبعد عن علاّم الغيوب ، وإلى أنه يشتغل بهم وبها عن الازدياد في العلم ، فكم رأينا فقيهاً تردّد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه ، ونسي ما كان يعلمه .) [١٣].

وهذا في القرن الثامن الهجري ، أيام كانت في السلاطين والعلماء معاً بقية من البركة والصلاح ، فما بالنا بأيام الخلل هذه ، وبضعف هِمَم وتقوى الخلف ؟

● وقد لاحظ السبكي في سياقه هذا أن الأمراء (يستحقرون المتردد إليهم ، ولا يزالون يعظمون الفقيه حتى يسألهم في حوائجه .) .

❑ موعظة الصعلوك الأوكراني ..

❑ وحين يشاهد بعض الأحرار هذا النَسَق من السوء : خطة استعمارية ، تتحالف مع يهودية ، وتجد لها منافذ عبر وكلاء ، وتشيع رخيص الأدب ، وتتعمد رسم صورة دعائية لثلاثة وأربعة من علماء السلاطين يتقربون بالباطل والقول

الفهقي المحرّف : تستولي عليهم وحشة ، ثم دهشة ، ويجدون سلوتهم في أن يهاجروا من بلدهم ، ربما ، لعلهم يستطيعون نسيان الواقع المرير ، وهم لا يدرون أن المصيبة عامة ، وأن المنظر يلاحقهم أينما هاجروا .

لذلك لا ننصح بهجرة أبداً ، وقد مارسناها وخبرناها ، فما كانت علاجاً إلاّ في النادر ، وفي حالات خاصة ، ولربما كان الصبر على الفقر وألم الواقع المرير ألذ وأطيب من رفاهية بين ظهراني قوم لا يعرفونه جيداً ، وللفطرة سُلطة رأى الشاعر استبدادها بصاحبه فقال :

فأعذرُ مَن رأيت على بكاءٍ غريبٌ عن أحبته ، حزينُ
يموتُ الصبرُ والكتمانُ عنهُ إذا وَرَدَ التذكُّرُ والحنينُ

وإنها دمعاتٌ تستهلك همة النائي ، وتتلف عينه .

● ولربما تقود الهجرة الأولى إلى هجرة ثانية ، فثالثة ، فسابعة ، في بلاد شتى ، كأنه طريد لا يعرف الاستقرار .

وكان ذلك من قبلُ شأن الشاعر ابن اللبّانة الأندلسي الذي تباعدت أسفاره وتعددت منازله ، فآذاه القلق ، فراح يشكو ...(١٤)

قد طال بي أقطعُ البيداءُ متصلاً
وليس يُسفِرُ عن وجه المُنى سَفَرُ
كأنما الأرض عني غير راضيةٍ
فليس لي وطنٌ فيها ولا وَطَرُ
إنّ الهموم مع الأعمار ماشيةٌ
لا ينقضي الهمُّ حتى ينقضي العُمُرُ

كتب عليه أنه الطائر بين البلدان ، والهموم تتراكم ، كأن الموت هو المرشح الوحيد الذي ينهيها .



واستظرفتُ جداً رسما كاريكتيريا معبرا لفنان أوكراني نقلته جريدة البعث[١٥] يوضح عودة مهاجر إلى عائلته ، وقد امتلأت ملابسه البالية بالرُقع الكثيرة التي جمعتْ أشكال أعلام الدول التي توهم أن رزقه سيكون فيها ، وعائلته تظن أنه قد عاد لها ومعه المال والفرج ، ورقع ملابس زوجته وبناته وابنه كثيرة أيضاً تنتظر نجدته ، لكنه ليس معه غير صُرّة ربما فيها كسرة خبز ، وهذا الرسم يعبر بصدق عن حال المهاجر العربي أيضاً ، فإن ما يعطونه من راتب أكبر في دار هجرته يعودون إلى امتصاصه ثانية برفع أسعار الإيجار ، فيعود كعودة الأوكراني ، ويكتشف أن ليس ثمّ غير رحمة الله ، وأما رحمة عباد الله فمجاز .

● **لكن مطالعة حال الواقع الهازل يعيدنا مرة أخرى إلى تقدير واقعي وإنصاف ، إذ ليس من العدل أن تطلب من حُرّ مرابطة ولبثاً في أرض تُهدر فيها حقوق الإنسان** ويتضاعف الحرج على المؤمن ، وكم من مثالي عاد من هجرته ، يريد أن يفيد بلده بإبداعه وخبرته وعلمه ، فيجد في المطار السؤال ، ثم الاعتقال ، وتنهار الأحلام .

وتلك هي قصة (زيد) المؤمن كما رواها د. عفيف البهنسي .[١٦]

أمضيتُ في مهاجري عِشرين عامْ
نسيتُ وجهَ المخبرينَ والعوامْ

والشكّ في شهادةٍ أو صورةٍ
والطعنَ بالأوراقِ أو ببصمةٍ

لا القمعُ في مهاجري ولا الحسابْ
مبرِّرٌ عن همسةٍ أو عنْ خطابْ

أحلامُنا في الليلِ لا تخشى اقتحامْ
ملءُ الجفونِ والرؤى نبقى نيامْ

نمضي إلى الصلاة صبحاً بالتمامْ
نختارُ ألفاظَ الخطيبِ والإمامْ

وننقلُ الأخبارَ عن كلِّ الأنامْ
حتى التي ضِدَّ النظامْ. عشرون عامْ

وفي المطارْ شممتُ تربَ بلْدتي
قبّلتَ أرض موطني في ساحتي

صافحتُ كلَّ عابرٍ والمخبرينْ
بطاقتي أعطيتُها للمشرفينْ

في غرفة المسافرينْ
صاح رأس المخبرينْ

هل أنتَ مَنْ ..؟ وقلتُ لا
بلْ أنتَ مطلوبٌ هنا

وها أنا في مَعْقلي
عشرون عاماً أصطلي

أجترُّ ذكرى هِجرتي
وفي سجونِ بلدتي

❑ صلبٌ ... بسنتيم التصفيق للتجريد العالي

❑ إنّ وضع الحُر في السجن إنما هو رمز انتصار القوة ...
إنه ليس انتصار المنطق ، ولا الأخلاق ، ولا التنمية ...

لذلك يبقى الحُر شامخاً ... وينهار السناد الأعوج ...

وتلك هي موعظة محيي الدين جرمة حين همس بها من اليمن ..[17]

(لكنني إنسان على ما أظن .. تنتصر عليّ بكل قواك ..

وأهزمك بكل ضعفي ...... فالفراغ مزحوم .. برومانسية طيور) .

فهو هنا كائن ضعيف.. لكنه يغلب المتعجرف بحقائق حركة الحياة التي أدركها فوظفها حين أدرك أن الفراغ ما هو بفراغ ، وإنما هو كله حركة حيوية ، تزدحم بالرمزية الفطرية وطبائع الطيور الحرة التي تخفق .. وتغرد .. فتذوب القيود ، لأن الطبيعة الإنسانية وطبيعة الطير ولدتا من رحم واحد .. فيه اهتزت نبضات الحياة .

● ويشاء الله أن يكون الترنـم أقوى من التنمّر ..

يحكي ذلك ماجد أبو غوش ...[18]

(أنا هنا .. يداي في القيد .. وعُنُقي .. وليلي طويل .. ونهاري مستباح .. وحدَها الأغاني .. على القيد عَصِيّة) .

● لكن أي الأغاني .. ؟

أغاني الإيمان .. والتكبير الذي لا يجد الجبابرة له حلاً ..

إنها تحليلات حمادة القاضي ...[19]

(أنت مهما ملكت الدنيا .. بكل زينتها .. وكلبشت إيديا .. روحي حيفضل صافي نسيمها .. ساعة م بتسمع .. الله أكبر .. بتروح تسجد .. للّي خالقها ..)

فحركة الحياة تستند إلى موقف الروح أولاً .. والصفاء والاستعلاء عُدة الانتصار .. لا القيود .

● ومعنى ذلك : نشوء مدرسة الحرية ، كما أعلنها نديم الشاذلي ...[20]

(فكرت أتعلم .. على كيفي .. مش على كيفك) .. ثم يصر ويشرح أكثر ...

(ماهو لازم الليلة لبُكره . تتولد لنا مليون فكره ..

وِحَ أقول من غير ما استأذن .. مش لسّه ح استنى أوامرك ..

معفية الأفكار م الجمرك . بتعدي في بلادي وصحاري ..

وتحرر في عبيد وجواري .. ويتدبح خرفان في براري ..
وتسقف للفن العالي ..) أي تصفق .

□ ظاهرة تطور شموخ الحُر إلى جهاد ..!

□ وكل ذلك يشهد له الفقه القديم ويصدّقه .. ومنه قول الجرجاني في شعره:

ولكن نفس الحُرّ تحتمل الظما

فإنما هي ظاهرة من ظواهر الحياة ، وقاعدة في التعامل ، وبمقابل أهل الإسفاف أحرار يتجملون عند اللأواء ويأنفون ، وبهم يكون تحريك الحياة . ولـذلك قـال تاج الدين السبكي : (إن العلم إذا عُظِّم : يُعظِّم ، وهو في نفسه عظيم) [٢١] .

● وقال رجل من أصحاب عبد الله بـن المبـارك : (خرجنـا مـع ابـن المبـارك مرابطين إلى الشام ، فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبّد والغزو والسرايا كل يـوم : التفت إليّ وقال : **إنا لله وإنا إليه راجعـون علـى أعمـارٍ أفنيناهـا وليـالٍ وأيـامٍ قطعناها في علم الخَلِيّة والبَرِيّة ، وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتوحة)** [٢٢] .

وعلم الخلية والبرية : يعني به أبواب الفقه الـتي تتنـاول ألفـاظ طـلاق الأزواج لنسائهم وقولهم أنتِ خلية وبرية .

فهو يتأسف على رصد طاقاته لحل إشكالات أناس لا يتورعون يـسارعون إلى الطلاق ويَدَعون المرأة في حيرة لتكاسلهم عن اسـتعمال لفـظ صـريح ، ولـو أنـه كفقيه صرف طاقاته في الجهاد ، وجَمعَ بين الفقه والجهاد : لكان أولى وأنفع للأمة وأجلب للعزة .

ويا سبحان الله كيف تعيد الأيام المواقف والتجارب ، فهذا محيط الدعوة يفتح الأبواب إلى الجنة ، والخطة الدعويـة تبعـث الـسرايا الموفقـة كـل يـوم إلى سُـوح البشارة والتعليم والسياسة والإغاثة والإعلام والجهاد ، ثـم يكـون شـأن بعـض أهل الفقه التسويف ، ويعتزلون ، ويسكنون إذ حركـة الحيـاة دائبـة ، ويوهمـون أنفسهم بزيادة ركعتين على ركعات الدعاة ، وبتعليم فقه الطلاق ، ويتركون فقـه الزواج بالحوريات بلا تلقين .

● وسبب ذلك : أن المنفرد يرتجل ، وتحكمه ردود أفعال ، وصاحب المشاركة في العمل الجماعي فقط هو المرشح لأن تقوده منهجية تؤدي به إلى سياق متصل من تطور المشاعر والمواقف ينتهي به إلى جهاد والخلاع عن الشخصية الفردية والانصياع لمتطلبات ولوازم الأداء الجماعي ، حتى ولو كان عامياً وبعيداً عن أجواء العلم ، طالما وهبه الله القلب الحر ، كمثل المجاهدة الفلسطينية (عيشة أم العبد) التي شاركت في ثورة ١٩٣٦ ، وكانت أرملة تبيع الخضرة التي تزرعها ، فعاندت عواطفها وفطرتها يوم استشهد ابنها ، وفضلت مصلحة الثورة والقرية ، وصارت قصتها من شواهد قابلية السلوك المنهجي في تطوير الأداء .

وروت قصتها سيرين الحسيني شهيد في مذكراتها [٢٣] .

(كانت عيشة أم عبد تعيش في قرية قريبة من (البيرة) التي لا يفصلها الكثير عن القدس .. أرملة توفي زوجها تاركا ابنه ومساحة من الأرض تزرعها بالخضر الذي تبيعه في سوق القدس القديمة .

تعلم عبد بضع سنوات ثم اشتغل في تقطيع حجارة البناء. لم تكن أم عبد تتابع السياسة أو تعرف عنها شيئاً. حتى التجمعات أو المظاهرات كانت تفسرها على أنها تظاهرات دينية .. ولم تتوقف عند الأمر إلا عندما بدأت تلحظ اجتماعات مسائية عند المختار وكان من المجتمعين ابنها (عبد) . بدأ يتسرب إليها كلام عن العرب واليهود والأسلحة لكنها أيضا لم تتوقف .. فاليهود جيران موجودون في كل القرى .. هم يهود فلسطينيون .. جاءت ليلة (عزومة) عشاء عند (المختار) لاحظت أن المختار قدم لكل مدعو صندوق فاكهة وصاحب ذلك كلام عن سلاح ومواجهات وكفاح مسلح .. يومها سمعت عيشة بمواجهة بين العسكر الإنجليز وبين الفلسطينيين في قرية قريبة.. ولم يمر وقت إلا وراح الإنجليز يعرضون على أهل القرى جثة الشاب الفلسطيني حتى إذا ما تم التعرف عليه دكوا القرية التي ينتمي إليها .. لاحظت عيشة أن رجال القرية ينتظرون نجاحها.. واكتشفت السبب عندما وقفت في طابور الأمهات ووجدت نفسها في مواجهة

جثة عارية لابنها عبد .. مادت بها الأرض وسالت دموعها وتحولت الدموع الصادقة إلى نشيج وعويل. (كلبة) صاح الضابط الإنجليزي .. أنت تبكين لأنك ولدت هذا الكلب.. أمه؟

قالت عيشة: أمه؟ من قال ذلك؟ إنه ابن كل هؤلاء الأمهات.. وأنا أبكي شبابه الذي ضاع.. أبكي على أمه وأبكي لأجلها .

ولم تتسلم عيشة جثة ابنها .. لأنها أرادت إنقاذ القرية كلها بينما حمل البريطانيون الجثمان يطوفون به .. ثم ليدفنوه وحيداً).

● وكنتُ قد سكنتُ السودان ، فرأيت شيئاً عجباً : أن الناس إذ استشهد أحد من أولادها في جهاد الحفاظ على وحدة السودان ومقاومة الانفصال : يعقدون مجلس التهاني بدل العزاء ، ولا تبكي أم الشهيد أو أخواته وقريباته ، ويفهم الأب أن ذلك سبب شرف له وللعائلة ، وأظن أن الحركة المهدوية هي التي غرست هذا العُرف الحسن .

ومن مثل هذا الشعور انطلق عفيف البهنسي في بيان قيمة قطرة الدم الزكية ذات العبير وفصيح التعبير ... [٢٤] .

في سِفرِ أخبار الحروب قصةٌ
عن قطرةٍ شهيدةٍ .. وعن شهيد
قد قيلَ إنّ قطرةً حمراء من
دمِ شهيدٍ أصبحت مجداً وطيدْ
يا قطرة قد شرّفت ثكلى رثتْ
شهيدها ، وشرّفتْ أبا الشهيد
بقطرةٍ شهيدةٍ ... بحبرها
قد دُبّجَتْ صفحاتُ تاريخٍ مجيد

وفي الأبيات عسر وترخصات ما غفلتُ عنها ، لأن المعاني شفعتْ لها .

□ إبداعُ المُبارَعة بُنتجُ إتقانَ المقارعة

□ هذه المنهجية التي تعتمد (الجماعية) أساساً لتطوير الأداء الجهادي : تقترن ، كما علمتنا التجارب ، بمنهجية ثانية في الاستعداد والتهيؤ ، يحصل من خلالها التصاعد التدريجي للكفاية والمهارة ، وبها يتوافر منطق موزون يحكم عمليات التوغل والاندفاع ، وهي منهجية سُباعية الأجزاء والدرجات فيها براعة وإبداع ، وإنّ الفاسق لبارع ، فيجتهد المؤمن أن يكون أبرعَ منه .

● مفصلها الأول : الخروج من البيوت ، والتصدي للأمور الجسيمة ، وصعود مدارج الإصلاح ، وبهذا :

تميّز أهل السبق، لكن غيرهم
غدا همجاً بين الخليقة هامجاً

أيلحقُ جُلس للبيوتِ مَداهمُ
ولم يحظَ في تلك المدارج دارجا

والبيتان من شعر محمد بن الجنّان الأندلسي[٢٥] ، والهامج : الذي يموج بعضه في بعض ، والصنعة الدعوية المعاصرة تملك إتقاناً في تحريك (جُلس البيوت) ، ولها تجربة مشهودة يحتاجها المنفرد مهما جزل علمه ، فإنه يحار إذا خرج ، ويفتقد الوجهة ، فيدخل في متاهة ربما ، فيتولد عنده إحباط يصده ، ولكن الذي يُسْلم زمامه للدعاة يضمن الدليل ، ويلتذ بمحاولته الأولى ، فيطلب ثانية .

حتى السجين : هو خارج بيته ، ولذلك يُتاح له التأثير ، فإنّ من أعجب حالات السجين السياسي ما انتبه له ابن اللبّانة الأندلسي من أنه يمارس قيادة الناس من قعر بئره من خلال ثباته على مواقفه ووفائه للمبادئ ، فيقول :[٢٦]

وأعجبُ منك أنك في ظلام
وترفعُ للعُفاة منارَ نور

فهو الغائب الحاضر ، بل أشد حضوراً من ذكي لم تحركه قضية ولم يتخذ هدفاً ، ومن جليس بيوت آثر السلامة فعجز عن أن يضيف إلى الحياة حركة .

● ومفصلها الثاني : حمل النفس على التخلق بأخلاق الإيمان ، واللبث في مقامات السالكين إلى الله ، ومع مقام الصبر بخاصة ، فإنه المقام الأوفى الأعظم لأهل التوحيد ، وآيات القرآن تفتأ تذكره وتوصي به مرة بعد مرة ، ولا ريب أن الخطط الجسيمة لها هيبة تجعل المقبل عليها بين الإقدام والإحجام متردداً ، ولكن التجربة الدعوية وجدت في التوكل والصبر والثقة أتم الحلول ، على مذهب الفقيه محمد بن الجنّان الأندلسي في الثقة بالله ، ثم الثقة بنفسه .[٢٧]

إذا ما غدا يأسي يغالبُ ليَ الرجا
ويحجبُ من ريّا الرضى ما تأرّجا
سللتُ على اليأس الذميم عزيمتي
حُساماً ، فألقتهُ قتيلاً مُضرّجا
وقلتُ لنفسي : لا تُراعي لازمةٍ
فكم نفّسَ الرحمنُ كرباً وفرّجا
وميلي إلى الصبر الجميل فإنه
لَينصرُ من للصبر مالَ وعرّجا
وديني بتقوى الله يجعل بلطفه
لك الله من كلّ المضايق مخرجا
وإما كرِهت الأمر فارضي وسلّمي
ففي طيّه المحبوبُ يأتيك مُدرجا
فهذي سبيلٌ إن هديت لقصدها
وجدت إلى مرقى السعادة معرجا
ولي ثقةٌ بالله أعلمُ أنها
تُسهّل صعبي إنْ زمانيَ حرّجا

وقوله: ديني : خطاب لنفسه أن تدين بالتقوى .

وهذه أحوال يتلقاها الدعاة عن أهل التجريب والمعاناة ، فإنهم بالجسارة ينصحون ، ولا نتلقاها عن مشائين في رواق الفلاسفة يستهلك فرط الموازنات أوقاتهم ، فتضيع الفرصة قبل نضوج رأيهم ، وقد علمتنا الأيام ومراقبة حركة الحياة أن الرباط في المحاريب ليلاً يمنح عزماً فجراً وثقةً عند الضحى ، فيكون مع العصر حدوث تحريك جزئي للحياة في شأن اجتماعي أو اقتصادي أو تنموي أو نفسي أو سياسي ، حتى إذا صار الغروب بدأ الاستعداد ليوم ثان ، فيكون من ذلك تراكمٌ يبقى يتعاظم حتى يتولد الزخم ، وما كان لهذا النمو المتدرج البطيء أن يكون لولا طرائق الفقهاء في جمع القليل إلى القليل .

● ● المفصل الثالث : الشروع في الجد ، والتشمير ، وهجر نصف الحلال ، من أجل توفير الطاقات للمهمة الصعبة ، لأن نزولنا في وديان هذه المقامات الإحسانية ليس هو على طريقة التصوف السلبي الانسحابي ، بل بموجب الفهم الدعوي الإصلاحي الإنتاجي وترجيح متطلبات قضايا الأمة على المتطلبات الشخصية .

إن طريقة الدعاة في تحريك الحياة هي طريقة الفقهاء الذين يعكسون القضايا ويحولون الهزل إلى جد ، والغزَل إلى عبادة ، والعَبَث إلى بناء ، كالذي كان من الفقيه محمد بن الجنّان حين عارض رائعة علي بن الجهم وقال :[28]

عيونُ النُهى بين التدبّر والفِكرِ
جلبنَ الهُدى من حيث أدري ولا أدري

جلبنَ ليَ الحقَّ المبينَ فأشرقتْ
مطالعُ أنوار الشريعة في صدري

أغضُّ عن الأشهى جفوني إن بدا
وبالزهد يرقى العبد للعزّ والفخرِ

كما غضَّ أنظاراً تقيٌّ مراقبٌ
يخاف مقام الله أو موقف الحشرِ

نهى النفسَ عما تشتهيه وصدّ عن

عيونِ المها بين الرصافة والجسرِ

وعلي بن الجهم ثقة صحيح العقيدة ، وكان قد انحاز إلى الإمام أحمد في محنة خلق القرآن ومَدَحه ، ولكنه شاعر يساير عُرف الشعراء في التغزل ، وولعه بالعيون أدب رفيع ومذهب ذوقي تمليه الطبيعة الحضارية والأحاسيس الإبداعية ، ولكن مذهب الفقهاء أوثق وأروع ، وعلى الأخص في أوقات الأزمات ، مثل الزمن الذي عاش فيه ابن الجنّان في القرن السابع ، حيث كانت سطوة الإسبان تزداد ، ويجتهدون في استرجاع الأندلس ، ولولا مثل ذلك لساغ لذي نفس عفيفة أن يقيس على (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) فيُماشي علياً بن الجهم الذي أثرت فيه أجواء بغداد بعد البداوة ، باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قبلها من كعب بن زهير ، وظروف أمة الإسلام اليوم أشبه بما طرأ من ضعف على دويلات الأندلس ، وأحرى أن يغض الطرف عن عيون المها من يريد الاستدراك والإصلاح وتحريك الحياة ، وأن يتقصد التدبّر والفكر واستعمال العقل ، لتتوارد عنده الخواطر الرحمانية ونزعات الهدى ، وتشرق أنوار الشريعة في صدره ، ويحالف ابن الجنّان في زهده ما استطاع ، فهناك ثمّ المرتقى .

● ● المفصل الرابع : تمييز الأصحاب ، واختيار الشيخ ، وأن لا يركن في المتابعة إلا لثقة يجمع إلى العاطفة عقلاً ، وإلى حسن النية حكمة ، ويكون على طرائق الوسطية ، من غير مجازفة ولا غلوّ ، فإن من شأن القضايا العظيمة أنها تهز النفوس ، وتثير الحماسة وروح التحدي ، فيخرج لها من لم تعركه التجارب بنوع عفوية ويرتكب المجازفة والتسرّع ، ويورط بذلك من وثق به وصار من أتباعه .

وموطن القوة في الشاب التقي الذي تؤدبه المنهجية الدعوية : أنه يصبح مالكاً لملكة تمييز تجعله يختار جليسه وصديقه ومشايخه ، فيلازم من ينفعه بقوله ، ويعظه منظره ، على طريقة الشاعر ابن اللبّانة الأندلسي الذي قدّم تقريره فقال : [٢٩]

حاورتُــــه ، فلقطـــتُ منـــه جـــوهرا

ونظرتُــــه ، فرأيـــتُ منـــه كوكبـــا

فجمال القول مؤشر على حسن الاختيار ، ولكن ما هو أوثق وأنفذ : طبيعة الشمم والاستعلاء والعفاف السامي التي تسيطر على قائل الجواهر المعنوية فترفعه في أعين ناظريه إلى مدار الكواكب ، فيكون منظره درساً وعظياً .

ويمكن لك بحدسك أن تتخيل النقلة الإيجابية الواسعة التي ستطور رائد المنهجية الدعوية حين ينجح في اصطفاء معلّم يُعلمه صَنعة فهم الحياة !!

وساحات الجهاد المعاصر تشهد تخليطاً سببه ضَعف الاستيعاب لهذا التميز الواجب ، فقد نزل إلى الميدان من لا فقه له ، أو له بعض الفقه ولكنه جديد لم تنضجه التجارب ، وتعينه أموال الرفد على تجميع شباب فقراء يريدون الجهاد ، فيسلك بهم المتاهة ، ويقوده الإفتاء الشاذ نحو ضرب فصائل الجهاد الأخرى إذا اختلفت عنه رؤاها واجتهاداتها ، ويتضاعف الانحراف إذا لم ينل من التقوى خلال النشأة ما يكفيه للتوغل إلى أقصى الدرب ، ويبقى كل أيامه عبوساً .

أما ربيب الفقه ، وخريج المدارج : فيجمع إلى الشموخ تربية الاتباع بالبَسَمات ، على أسلوب الصعيدي الذي لقيه نديم الشاذلي ...

(سألت شاعر .. صعيدي واعر .. إمتى تدبل ... أو تموت ...؟

قاللي : لو تنحنيلي هامه ....! سافر .... وساب لي ... ألف ابتسامه .)[٣٠]

● المفصل الخامس : البراءة من الاستشراف لمنصب ، أو لوراثة ، وتجريد القصد ، وتفويض ذلك لله ، ولأمراء الدعاة ، فإنْ فعلوا وقدموا الأمثل فالأمثل : فذالك فضل الله ، وقد أعفوك من شبهة مدّ العُنُق ، وخرجوا بك إلى يقين . وإن أهملوك عمداً مع الكفاية : فإن الله يتولى الصالحين ، ويجعل لكل حليم صابر عوضاً وفَرَجا ، بما كان منه من ترجيح وحدة الجماعة ، وهدر حقوقه .

❖ وفي أعقاب معركة : نفض (زيدٌ) الغبار عن ردائه ، ثم استقر في كوخه الخفي ، بعيداً عن الضوضاء ...

فلمحه (عمرو) القائد ، فاستغرب ، وقال :

ـ تنزوي وقد أبليتَ أحسن البلاء ...!

ـ نعم ، ورحم الله مسلماً عَرَف قَدْرَ نفسه ..!

ـ ولكنك وعدت فأنجزتَ ، وحدّثتَ فصدقتْ ..!

ـ أيها الأمير : من كان على حمار فإنه سائر غير واقف ، وإنما عليه أن يكون على جانب الدرب ، ويُخلي الطريق لفرسان على جيادٍ أصيلة !!

ـ لست كذلك ، بل أنت فارس ، إنما زهدت ففصحت وتواضعتْ ، هلاّ وعظتْ ؟

ـ أيها الأمير : المشكلة ليست في المبدع ، فإنه يبتكر جديداً ، ويضيف أبرع المعاني ، ويؤسس لأصولٍ تكون غداً باسقات ، ولكن المشكلة في رجال حول المبدع ، يتنافسون : أيهم يكون من بعده صاحب سهم في الإرث يخوّله حقاً ويمنحه ضماناً . !

ـ فكيف يتعامل معهم اللاحق ؟

ـ بتمييز المليء ، وترجيحه ، ومنح الدعيّ سبب فخرٍ يُبقيه في محيط الدائرة .

ـ ومركزها ؟

ـ المركز محجوز ، وبثباته تتحرك الحياة وتدور على محاورها .

ـ فهل من شاهد ؟

ـ نعم : صيرورة أبي سفيان عاملاً على جيزان ، فهو القصيّ الرضيّ ، والمتطلع القانع ، والراني المعوّض ..!

ـ والمدينة ؟

ـ للوزراء .. لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ..!

ـ زدني ..!

ـ الزيادة أن تتركني في كوخي أتأمل وتجول خواطري في مسارح الفكر ، لعلّي أجد لموعظة الغد حروفاً .

- إلاّ صنعة التمييز .. قل لي : كيف أتقنها .. ؟

- ليست هي رياضيات فتتعلمها ، ولا كيمياء فتُحلّلها ، ولكن انظر إلى الجباه تجد الخبر والمحتوى ، وحَرف الصدق ينساب ، ولنبرة التكلّف رنّة ، ولربما استحالت فرقعة ..!

- أفاكتفي ؟

- نعم ... وتعمل بصمت ..!

- فكلمة أخيرة ..!

- إن قوماً رأوا أن الدنيا قد واتتْ ، وأن الخيرات تترى ، فتمادَوا ، وأذهلهم الرتع ، فوقفوا وسكنوا ، إذ الحياة اندفاع وتوغّل ، فإنْ مِلتَ إلى مثل تسيّبهم : أقعدوك عن المعالي ، ولكن صِر إلى ركن التحريك ، واستوعب فقه الحركات : ينفتح لك باب رجاء ، وتقترب من الحكمة مرحلة ، ثم الله منه البركة ..!

● المفصل السادس : تأسيس القاعدة المعلوماتية والبحثية ، للتقدم على بيّنة ، وممارسة التخطيط ، لينضبط جميع من هنالك ، ويلتزم الرؤى والقرارات الجماعية ، ولا يرتجل من شاء كيف شاء .

والمجتمع الدعوي زاخر بأهل العلم الشرعي ، والثقافة العامة ، وممن يحوز فنون الإدارة والتخطيط ويعرف إثارة الإبداع ، بل هم أهل السبق ، ولكن المهمة الحاسمة تكمن في كيفية (تشغيل) هذه الكفايات ، وفي وضع الإطار العملي المناسب الإنتاجي لها ، والصيغة التنفيذية .

ويروي الأستاذ الباحث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية صقر أبو فخر أن المؤرخ نبيه أمين فارس كان يقول :

(إن العرب والفلسطينيين لا يحتاجون عقولاً البتّة ، بل أقفية).

قال: (ومعنى كلامه أن لدى العرب والفلسطينيين الكثير من الأدمغة والمهارات ، لكن ما ينقصهم ليس هذا ، بل أن تقوم هذه الأدمغة والمهارات بالجلوس في المكتبات وعلى طاولات الكتابة ، وتنكبّ على الدرس والبحث والتنقيب والتأليف واستخلاص الأفكار ، وأن تضع محصلة ذلك كله في أيدي

صانعي القرارات وأصحاب الرأي ورجال السياسة والصحافة معا) .[٣١]

والقياس يجعل من هذه الملاحظة نقداً للواقع الدعوي ، فالدعاة الأذكياء عددهم كثير ، ولكن تحتاج قيادة الدعوة أن تؤمن بأهمية البحث والفكر الخاص النسي ، وأن تفرغ لهذه المهمة من الرجال والنساء من ينجزها ويمد صناع القرار الإسلامي المحرك للحياة بالرؤى الواضحة والقرائن والأدلة التاريخية والإحصاءات التحليلية للواقع الغامض على من يعيش فيه إذا غفل عن أساليب الفحص العلمي وذهل عن فنون وقواعد التخطيط والنظر الاستراتيجي ، والذي يحرك الحياة ينبغي عليه أن يملك رؤية واضحة لما هو موجود ، ولما يريد صناعته ، وللوسيلة ووقت ا لموافاة المضبوط ، وقاعدة المعلومات التي يرتكز عليها في كل ذلك ، والوصف النفسي لمن هنالك ، وأحوال القلوب التي في الساحة ، وبدون ذلك يكون الارتجال ، فالتعثر ، فالتبعثر .

ويقوم أبو فخر بتذكيرنا أنه قد ظهرت في مجرى العمل الفلسطيني (مؤسسات إعلامية وعلمية مهمة ، وقدمت إسهامات جُلّى في البحث والصحافة والإعلام ، وقد كان الفلسطينيون رواداً وأوائل في هذا الحقل من حقول المعرفة ، فهم أول من أسس مركز البحث العلمي في لبنان ، وعلى أيديهم ظهرت مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الأبحاث ومركز التخطيط ، وجهدت هذه المراكز ، بباحثيها وكتابها ، في إعلاء شأن القضية الفلسطينية في الديار العربية ، وفي المنابر الأوروبية والأمريكية ، وتمكنت ، بالتدريج ، من إدخال القضية الفلسطينية إلى فضاء الإعلام والصحافة ، وإلى الجامعات وعقول الدارسين في شتى أنحاء العالم . وما كان لهذا الجهد أن يينع ويزهر لولا نفر من الباحثين اللامعين ، الفلسطينيين والعرب ، الذين نذروا أنفسهم لهذه الغاية الجليلة) .[٣٢]

ويورد أسماء بعض هؤلاء المتجردين للبحث ، أمثال فايز صايغ ، ويوسف صايغ ، ووليد الخالدي ، ونبيه أمين فارس ، وبرهان الدجاني ، ومدير المركز أنيس صايغ .

والذي يعنينا أنها تجربة ناجحة يمكن القياس عليها ، وأن كل مجموعة إسلامية في كل قطر تريد تحريك الحياة لصالح ما تعتقد عليها أن تهب مجموعة من أذكياء عناصرها لهذه المهمة البحثية ، وتؤسس لهم مراكز ومعاهد ، ولا يصح أن تبقى القيادات تكرر الشعارات العامة وتدور في مدار العاطفيات ، أو أن تكون مواقفها مجرد ردود أفعال .

ومهمة هذه الكتلة البحثية أن تنتقل بالفكر من نطاقه العام المجمل إلى نطاق تخصصي ومحلي ، يتقيد بمنهجية علمية دقيقة ، وتهبه مُكنة لوصف قضايا قطرها ، وبيان جذورها ، واستشراف مستقبلها ، واكتشاف المحركات التي تتحكم في تطورها ، وبذلك يفهم العالم كله فقه التحريك الذي تختاره الدعوة هناك .

لكن حصل زهد قيادي بالنتاج ، وتضاعف الجانب السلبي بزهد المقاتلين الفلسطينيين أنفسهم ، ونجاح المراكز التي قامت بواجبها ونجحت في نشر وعي جيد في العالم : قابله خذلان لها من القادة والجنود معا .

هذا قول صقر ، الذي يؤكد : (أن انحسار البحث العلمي الفلسطيني لم تكن علته الحرب اللبنانية وحدها ، أو سطوة القيادة السياسية وتدخلاتها ، وإنما البيئة الثقافية للثورة الفلسطينية ، وهي بيئة ظلّت متخلفة في بعض جوانبها ، فشاع في بعض أوساطها احتقار الشهادات العلمية والألقاب الأكاديمية ، وكان البعض يتساءل بخفة : لماذا العلم ؟ وما نفع الشهادات ؟ غداً سنحرر فلسطين وكفى ، فنحن إما مقاتلون أو شهداء . وكم سخر البعض من البحث العلمي في القضية الفلسطينية بالقول : إن اليهود أخذوا فلسطين ، ونحن نريد أن نحررها . هذا كل ما في الأمر ، فلماذا الفلسفة ، وعمّ تبحثون ؟

وفي لُجة القتال اليومي انتصرت إلى حد ما مقولة (السياسة تنبع من فوهة البندقية) ، لتصبح هذه المقولة شعاراً للعديد من ذوي المخيلة الشاحبة والأدمغة المتخشبة ، وجرى استحلاب شعار لاحق من ذلك الشعار السابق هو (الثقافة تنبع من فوهة البندقية) . وظهر في النتيجة مصطلح (أدب البنادق) الذي لا نكاد نتذكر منه اليوم شيئاً . وكان الكلام الساري في الأفواه هو أن الحارس في المخيم

أفضل من الباحث في مؤسسة الدراسات .)[٣٣] .

والذي نخشاه أن يتسرب مثل هذا المنطق الواهي المتنكر للتكامل والمنهجية العلمية إلى الأوساط الجهادية ، بعدما أخذ يدندن حوله الذين ينظرون من نافذة ضيقة إلى أرض المعركة الحضارية وساحة التنافس الحيوي المتعدد الوجوه ، وأصبح إطلاق الرصاص الشكل الوحيد الصائب عندهم ، والساحة الدعوية ما تزال بريئة من هذا النظر السطحي ، بحمد الله ، وإذا حدث تسرب لهذا الفكر المتخلف ، لا سمح الله ، إلى دار الدعوة : فإنه سيكون بداية لانحراف كبير عن أصل المعاني الدعوية في الإصلاح والتنمية والعمران المدني والممارسة الحضارية .

ومما يرويه الأستاذ صقر أبو فخر أنه (في أوائل سنة ١٩٧٠ أنجز مركز التخطيط **«الخطة الاستراتيجية الشاملة للثورة الفلسطينية»** بجهد متضافر شارك فيه العشرات من الخبراء والباحثين والمفكرين والسياسيين ، وطبع المركز هذه الخطة بنُسخ قليلة جداً ، وأرسلها بالسرية التامة إلى القيادة في عمان . ولما لم يتصل به أحد لمناقشته في تفصيلات الخطة . سافر يوسف صايغ إلى عمان لاستكشاف الأمر ، وهناك اكتشف ما لم يكن يخطر في باله قط : لقد وجد نسخة من الخطة (السرية جداً) مركونة في مقر القيادة ، وعلى غلافها بقع من بقايا السكر والشاي ، فتجلّدَ ثم قَفَل إلى بيروت . وهكذا تحول الجهد المتضافر والعمل المتواصل لمجموعة مميزة من الباحثين إلى صينية للشاي والقهوة ، ومع أن الصفحة الأولى من هذه الخطة ، ويا للغرابة ، ممهورة بعبارة «سري للغاية».)[٣٤] .

وهذا السر السري للغاية هو الذي يفسر مسلسل التنازلات المجانية السخية التي انتهت بالقضية الفلسطينية أخيراً إلى وضعها الصعب الحالي .

وتعجب أن يبقى بعد ذلك من يدافع عن تصرفات الذين يضعون فناجين قهوتهم على أوراق الخطط الاستراتيجية ، وكما حدّثنا السُبكي بعد البصري عن علماء السوء : يحدثنا صقر أبو فخر عن المصلحين: (ففي كل مجتمع هناك دائماً مثقف السلطة ، وهو قليل الإبداع على العموم ، وابتكاره الوحيد هو قدرته على التحرش بالسلطان والاقتراب منه ، ثم تسول عيشه من خدمته)[٣٥] .

وعبارة : التحرش بالسلطان : سليمة واردة في البلاغة العربية ، وإن كان المفهوم السائد اليوم يوحي بضد معناها .

●● المفصل السابع : تطوير الظاهرة الحيوية في تشكيل الحد الأدنى إلى التشكيل الأمثل ، وهذه مهمة (الفكر) لا (التخطيط) ، وإنما يستفيد التخطيط من ناتجها ومن خلاصتها ، فيصوغها بنداً في سياق الخطة ، وأما سعة التصوّر واستعراض الاحتمالات وكشف المنظر الكلي من خلال تجميع الأجزاء : فهي مهمة الفكر الذي يجب أن يكون حُرّاً جريئاً عفيفاً نزيهاً بريئاً من الإملاء المسبق ، لكي يؤدي مهمته في رسم خارطة تكوين (الأمثل) .

وفي كلام المعماري المصري الشهير حسن فتحي ملاحظة مهمة في الحركة الحيوية اقتبسها من ظاهرة التبلور تشرح معنى الأدنى والأمثل ، فيقول :

(إنّ هناك تباديل وتوافيق لا حصر لها لتجمع ذرات أي بلورة من بلورات أي ملح من الأملاح ، فإذا ما كان أمر تكوين البلورات متروكاً للمصادفة : احتاج الأمر إلى آلاف الملايين من السنين بحسب قوانين الاحتمال الرياضية لكي تأتي بلورتان من ملح واحد كسلفات النحاس مثلاً متشابهتان ، هذا على حين نجد كل بلورات هذا الملح تتخذ نفس الشكل في عمليات التبلور . إن هذه الظاهرة أو المعجزة تعود إلى أن ذرات سلفات النحاس المذابة في الماء تتجمع في عملية التبلور بقوى طبيعية تخضع لقوانين أزلية موحدة لا محيص عنها ، ومن هذه القوى: الحركة البروانية ، وهي حركة ذبذبة لولبية تتخذها الذرات التي تشد بينها في نفس الوقت قوى التوتر السطحي ، وبهاتين الحركتين : الطاردة والجاذبة : تترسب الذرات في بحثها عن السكون بالتنظيم الذي يُعطي أقل ما يمكن من الفراغات بين الواحدة والأخرى ، مما يسمى بتشكيل الحد الأدنى ، وإنه بهذه الطريقة وحدها ما يجعل شكل البلورة النهائي متشابهاً مع شكل الذرة ، بما نجده من أشكال بلورات الملح الواحد .

إنه إذا كانت القوى الطبيعية تعمل بطريقة ذاتية في تكوين البلورات فسنجد الأمر مختلفاً بالنسبة للتكوينات المعمارية ، إذ أن الطوب والحجارة والخرسانة

وباقي مواد البناء لا تأتي وحدها لتترسب على شكل جدران وأعمدة وأسقف بحركة ذاتية ، إنما هي إرادة الإنسان التي ترتب هذه المواد في البناء وتتحكم في عملية التشكيل المعماري . إلاّ أن ذلك لا يعني أن يجد المعماري نفسه حُرّاً طليقاً يفعل ما يشاء كيفما اتفق. أنه سيجد نفسه أمام عدد كبير من القوى والعوامل ، منها ما هو طبيعي ، كالحرارة ، وما هو ميكانيكي ، كحركة الهواء فيما يتعلق بالجو والميتيولوجيا ، ومنها ما هو إنساني فيما يتعلق بالفسيولوجيا والسيكولوجيا والاجتماع والثقافة ، وغير ذلك مما يجب على المعماري مراعاتها في تشكيل عناصره المعمارية وتنظيمها في الفراغ لإعطاء أكبر كفاية للمبنى في توفير الراحة الجسمانية وتحقيق احتياجات الإنسان المادية والروحية . إن عليه أن يراعي كُلاً من هذه العوامل على حدة ، وكلها مجتمعة ، في نفس الوقت ، باعتبارها متكاملة في صعيد واحد ، هو صعيد التصميم المعماري الذي سيقوم به الإنسان بعقله الواعي وإحساسه عن طريق عقله الباطن ، وبذلك ستتحول فكرة تشكيل الحد الأدنى إلى فكرة التشكيل الأمثل .)[٣٦] .

إنّ هذه الحركة اللولبية إنما هي استطراد للحركة الدائرية ثم الكروية التي رصدها الفنان قتيبة الشيخ نوري ، وفيها نوع من التحريك المزدوج الدائري والمستقيم ، فيكون نتاج جمع الحركتين المسار اللولبي ، وإنما ينشأ ذلك من الخضوع لقوتين وعاملين ، وأكثر أحياناً .

ويجدر بنا ونحن في ختام (منهجية الاستعداد والتهيؤ) أن نلاحظ أن السلوك الجزيئي للمادة الكيمياوية في بحثها عن (السكون) خلال عملية التبلور : يقودها إلى أن تترسب وفق تنظيم لا يسمح إلاّ بأقل الفراغات ، وهذا السلوك الذي خلقه الله وجعله من فطرة العناصر : ربما أراد الله به أن تكون لنا فيه موعظة وإشارة هندسية وتكوينية ، وأن نقتبسه كقاعدة في فقه التخطيط والبناء التنظيمي ، بحيث نمنع الهدر والجزافية ولزوم ما لا يلزم ولا تسوغه مصلحة أو تحتمه ضرورة .

□ إن ظاهرة تبلور بعض الأملاح تقوم شاهداً على صواب منهجية اقتباس الخطط لتحريك الحياة وفق قوانين حركة المخلوقات وسلوكيات العناصر وأخلاقها

الفيزيائية والكيمياوية ، ولكنْ كما يفعل المعماري نفعل ، ونأخذ بوصية حسن فتحي ، فإنّ الذي يريد أن يبني تنظيماً ، أو يحشد فصيلاً جهادياً ، أو يؤسس مؤسسة تخصصية ، أو يقوم بحملة إعلامية أو إغاثية ، أو يضغط: عليه أن يدرس حرارة الأجواء الفكرية والسياسية في المجتمع المحلي والإقليمي ، وأن يرصد حركة التيارات الأخرى المعاكسة ، والأحوال النفسية لأصحابه ولعموم الناس ، وأسلوب توظيف الطاقات المتوفرة ، وسهولة التحرك ، وعوامل الإغراء الجمالية ، والتجانس مع البيئة والمحيط ، ورخص التكاليف ، والانتساب إلى التراث وطراز السَلَف ، والثبات عند الزلازل والمحن والفتن إذا كاد العدو وقاوم ، في قضايا أخرى عديدة ، والأداء المنتج يعتمد على مراعاة كل ذلك ، ولا يليق أن نتقدم بعفوية ، ولا بطريقة بدوية ، أو هجمة زنجية ، فقد هجمت قبائل الزولو على جيش الاستعمار البريطاني كتلة واحدة بالرماح والعصي ، فغلبته وأبادته ، ولكن التخطيط البريطاني المتأني عاد فغلبها من خلال مراعاة القواعد التخطيطية المشتقة من الفنون المعمارية ، وكذا فعل الجنرال كتشنر بجيش المهدوية حين أمر الخليفة التعايشي جنوده بالهجوم كتلة واحدة في معركة أم درمان ، فكانت المأساة ، والصواب أن نسعى نحو الأمثل الأكمل الأمتن الأوفى الأجمل ، باتباع الشروط والتجانس مع البيئة ، ولا يكون الاكتفاء بالحد الأدنى .

□ إن من الصواب أن نبني تشكيلنا بحيث يحتل المقدار الأدنى من الحيّز المتاح ، توفيراً للجهود والكلفة ، وتجانساً مع ظاهرة التبلور الحيوية ، وأن لا يمتد بفضول إلى حجم زائد لا يحتاجه ، ولكن ذلك مشروط بشرطٍ تعويضيٍ مهم : أن يكون له باع عريض ، ليؤثر ، ويتوفر له وصف الأمثل . ☼

---

(١) اقتباس من شعر الفلسطينية منال النجوم بمجلة (أدب ونقد) عدد فبراير ٢٠٠٧ .

(٢) (٣) جريدة البعث السورية ١٤/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(٤) جريدة أخبار الأدب المصرية ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(٥) لسان العرب ١/ ١١٠٨ .

(٦) أخبار الأدب ١١/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(٧) معيد النِعَم ومبيد النِقَم للسُبكي/ ١٧ .

(٨) بيت أورده ابن الوردي في تاريخه ، ونقلتُه من مقدمة تحقيق كتاب معيد النعم .

(٩) جريدة الأسبوع الأدبي السورية ١٠/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(١٠) (١١) (١٢) لسان العرب ١/ ١٠٤٢ ، ٢/ ١١٢٧ ، ١/ ٦٦١ .

(١٣) معيد النعم/ ٦٨ .

(١٤) ديوان محمد بن اللبّانة/ ١٤٨ جمع وتحقيق د. منجد مصطفى ، ونشرته الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ٢٠٠٦ .

(١٥)جريدة البعث ١١/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(١٦)ديوان (أناشيد للوطن) للشاعر والباحث السوري د. عفيف البهنسي/ ٧٨ .

(١٧)أخبار الأدب ١٨/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(١٨) الأسبوع الأدبي ١٠/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(١٩) أخبار الأدب ١٨/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(٢٠) مجلة أدب ونقد عدد فبراير ٢٠٠٧ .

(٢١) معيد النعم/ ٧٠ .

(٢٢) العِقد الفريد لابن عبد ربه ٦/ ١٣٥ .

(٢٣) من مقال تعريفي بمذكرات سيرين الحسيني في جريدة أخبار الأدب ٤/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(٢٤) ديوان أناشيد للوطن/ ٢٨ .

(٢٥) ديوان محمد بن الجنّان/ ٧٨ جمع وتحقيق د. منجد مصطفى ، ونشرته الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ٢٠٠٥ .

(٢٦) ديوان محمد بن اللبّانة/ ١٥٥ .

(٢٧) (٢٨) ديوان محمد بن الجنّان/ ٧٩/ ١٠٦ مع تحوير بسيط أجريتُه .

(٢٩) ديوان محمد بن اللبّانة/ ١١٣ .

(٣٠) مجلة أدب ونقد عدد فبراير ٢٠٠٧ .

(٣١) (٣٢) (٣٣) (٣٤) (٣٥) من بحث له في كتاب وقائع ندوة عقدها مركز الزيتونة ببيروت ، بعنوان : منظمة التحرير الفلسطينية : تقييم التجربة وإعادة البناء/ ١٠٧/ ١٠٩/ ١١٠/ ١١٥ .

(٣٦) كُتَيِّب (العمارة والبيئة) لحسن فتحي/ ٣٠ من منشورات دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٧